تدافعية أم حوارية لغوية

د. أحمد موساوي

قد يستغرب القارئ ،و هو يتلقى عنوان ه ذا المقال، إذ يجد المصطلح الأول " التدافعية"، بعيدا عن فضائه و م جاله الحيوي ،و يبدو في غير محله، و يندهش لتموقعه في فضاء أدبي غريب عنه .و تلحق هذا الاستغراب و الدهشة مجموعة م ن التساؤلات ،و علامات الاستفهام،أبرزها،ما ع لاقة التدافعية بالأدب و اللغة ؟،و ما صلتها بالسرد في الدرجة الأولى؟ وما هو المصدر الأول لهذا المصطلح ؟ و هل يمكن الاستئناس به في هذا الميدان ؟.

و لتجلية ذلك ،و توضيح المقصد من اس تعارة هذا المصطلح القرآني و الذي ورد بالشكل التالي في سورة البقرة (...ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض و لكن الله ذو فضل على العالمين)[1] .،و جاء في لسان العرب[2] عن الدفع و الدفاع ،أنه من تدافع القوم أي دفع بعضهم بعضا ،و الدفع الإزالة بقوة ،و دافع الله عنه السوء دفاعا.

و في ظلال القرآن[3] أورد المفسر ،أن القوى تتصارع في الحياة و تموج في تدافع وزحام ،و ولو لا طبيعة الناس التي فطروا عليها ،أن تتعارض مصالحهم و اتجاهاتهم ،و دفع الله الناس ببعضهم البعض لفسدت الأرض ،فالطاقات تتزاحم و تتغالب فتنفض عنها الكسل و الخمول ، والله يجعل حصيلة الصراع في يد القوة الخيرة . وهكذا أوجد الله الصراع والتدافع لحكمة عليا ،" ...فلو لا الشر الموجود في الأرض ،و مصارعة الخير له ،لركد الخير وأسن و تعفن ،أو ترهل ،و لم تعد له إيجابية حقيقية في الحياة ،و هذا الدفع الذي يدفع الله به الناس بعضهم ببعض ،هو الذي يحيي الخير و يقويه و ينشطه و يدفعه إلى العمل الإيجابي المنتج ،فلا تفسد الأرض..."[4]

و ما جعلني أميل إلى مصطلح الدفاع و التدافع ،هو تعبيره الدقيق عن ظاهرة الصراع الواقع بين البشر في الحياة ،و فحوى هذا التدافع ،و لم أوج د الله ؟ و هل هو مجد أم غير مجد ؟ ، فالتدافع و الصراع يمنح حياة الناس الحركة و الحيوية ،و إنه تدافع ذو ألوان متعددة ،في النفس و المجتمع و مساحاته واسعة.

و ما دامت اللغة هي هذا نتاج البشر المتدافع و المتصارع ،بأشكاله و ألوانه، وثقافاته المختلفة ،و لغاته و لهجاته المتباينة ،قلت مادامت اللغة اجتماعية ،متطابقة مع هذا الواقع و صادرة عنه ،فإن التدافع في اللغة سيكون وسيلة من وسائله الأساسية.

و ما يلاحظ على الخطاب السردي الجزائري ،أنه يجسد هذا التدافع بوضوح .فالثراء اللغوي الذي يميز هذا الخطاب ،و الشخصيات المتنوع ة التي يقدمها ،و تشعب المواقف والأفكار المتنازعة ،يسهم في تقديم مستويات لغوية تتطابق مع الناطقين بها ،أو بالأحرى الذين أنطقهم الروائي بها .

وهذه اللغات و اللهجات المتصارعة والمتدافعة ، تعكس التدافعي ة على مستوى الأشخاص والأفكار والمذاهب وتعبر عنها ،فمن هنا كانت استعارتي لمصطلح التدافعية و قد نبعت وصدرت عن هذا الفهم ،لعلي أجد و أصل إلى معالجة التدافعية على مستوى اللغة والذي جسدتها الخطابات السردية التي استعنت بها،وه : كتاب الأمير لواسيني الأعرج، و العشق والموت في الزمن الحراشي للطاهر وطار.

إن التدافعية في هذه الأشكال الخطابية السردية و غيرها قد تقدم من خلال خطاب واحد للروائي نفسه،أو عدة خطابات لنفس الروائي،و قدد تتجلى في خطابات سردية واسعة ومتعددة لكتاب متعددين في الوطن الواحد،أو في نتاج الأمة بأكملها ،ليعكس حقيقة هذا التدافع الموجود بين اللغات منذ القدم، و من هنا يتطابق الواقع مع الآية الكريمة لكي لا تفسد الأرض بل تحيى و تثرى من خلاله.

وإن الصراع الذي عرفه المجتمع الجزائري، وعكسته الخطابات السردية ،كان بين أفكار وسياسيات و ثقافات و رؤى مختلفة ،فتواجهت الفرنسية مع العربية و الأمازيغية واللهجات الشعبية الأخرى، وهو صراع و تدافع طبيعي في الحياة . و بمرور الزمن استمر الصراع اللغوي في المجتمع وجسده النص الأدبي و من خلاله سعت كل لغة إلى السيطرة على المواقع ومساحات أخرى على سطح النص.

الشخصيات ،المواقع ،المذاهب ،السياسيات ،الأفكار ،الرؤى ،أنواع وأشكال في الخطاب السردي المتواجد بين أيدينا و منها ا لأمير عبد القادر ،الرجل السياسي ، والقائد العسكري ،و المتصوف ،و الشاعر ،و الزعيم الروحي ،الذي يقدمه الخطاب من خلال مفردات ومصطلحات ترتبط بطبيعة الشخصية الإسلامية المجاهدة " ...إن الله يسمع من المؤمنين آلامهم ،الحمد لله الخير بدأ ينزل علينا ،أبشركم أن هاتفا وقف على سيدي الأعرج و سيدي محي الدين و بشرهم بسلطان سينزل من لحمهم ،فارس لا شيء يشبهه فيه من روح الله واستماتة المجاهد و سمة الأنبياء ،اليوم ستتم مبايعة هذا السلطان الذي سيحارب فلول الغزاة الذين سرقوا البلاد و كرامة العباد و الكفار و المرتدين ..." [5].

كما يورد الروائي في نص الأمير كلمة هذا الأخير في البيعة التي تدل على خلفية اللغة التي استعملت و مرجعيتها " ...و كشرط لقبول ،فرضت على أولئك الذين عهدوا إلي بالسلطة العليا واجب الامتثال دائما في جميع أعمالهم إلى تعاليم الشريعة المقدسة و كتاب الله و أن يقيم العدل على هدي سيرة رسوله بأمانة و تجرد ،على القوي و الضعيف و الشريف والمشروف ...إن هدفي الأسمى أن أحقق ما فيه الصلاح و الخير ،و اتكالي على الله فمنه وحده أنتظر الثواب و الفلاح ..." [6].

فلغة الأمير هنا في العربية الفصحى المستمدة لألفا ظها من الثقافة العربية الإسلامية أو هي إذا أردنا لغة دينية تتطابق مع شخصية الرجل المتدين و الزعيم ا لمسلم، وغير بعيد عن هذا المستوى اللغوي يورد الروائي نصا آخر ذي ميزة مختلفة و كأنه يضع اللغة العربية الفصحى في مواجهة و تدافع مع العامية ،"...ولد العصملي ي ا سراده ،يا كرام ،بنا

وعلى حتى وصل السما ،خيره كبير ،وباركته نورت الدنيا ...ولد العصملي جبر لمطامير واجده ،وامسح لرض ،واكل الأخضر و اليابس ،الرجال ما ماتوش ..."[7] .

و يتواصل الحديث بلهجة عامية " ...هذاك المهبول ،الي ما يعرفش بأن الباي نتاعه كلاه حمار ،قدامه الحيطان و يفلق راسه إذا حب ،هذا ما عندو ما يدير رانا في بيت الله "[8] .وهنا التدافعية اللغوية واضحة ،و نتلمسها في مساحا ت متعددة من النص ،بين العامية والفصحى في صراع متواصل و شد وجذب لا ينتهي و تبادل متعددة للمواقع ،و لا يغيب عن هذا الخطاب الأشكال اللغوية الأخرى ،فتدخل الفرنسية ح لبة التدافع بصورة صريحة سافرة ومباشرة كما كانت في الزمن الماضي في المجتمع و عل ى سطح الأرض ،في حربها المتواصلة مع العربية و لهجاتها المختلفة ،و كأن واسيني الأعر ج يسعى إلى تقديم صورة المجتمع وواقعه الثقافي كما هو دون تحيز لجهة معينة أ و إبداء موقف تجاه الفرنسية أو العربية أو العامية و الأمثلة متعددة عن ذلك في محطات كثيرة من الخطاب " je suis bien a nos affaires…" [9]décide d exclure l émir de toute participation [ ) و في مكان آخر تجد السارد يراوح بين الفصحى و الفرنسية.

…je ne connais pas le texte du traite passe entre le général domichels et " éprouverai pas dans toutes Abdelkader mais d après ce qu on m en a dit je ne l (10) dispositions…"

و هكذا في تدافعية شديدة و قوية ،يزدحم النص بلغات متباينة ،عاكسة صراعا واقعيا في المجتمع الجزائري بين هذه اللغات و اللهجات ،صراعا على المواقع مثلما النص ،تسعى كل لغة إلى السيطرة على موقع أو اثنين أو أكثر لتكون الناطق الرسمي باسم الشخصية الروائية ، و من خلال ذلك باسم الشخصية الجزائرية ،فيكون صوتها أعلى الأصوات ،و يبقى صداه في آذان القراء و المتلقين .

و إلى جانب شخصية الأمير العربية المسلمة و المحافظة تظهر شخصيات أخرى فرنسية و عربية ،رجال ونساء ،ساسة و مسوسين ،سجناء وسجانين ،كل هؤلاء و أولئك تعكس لنا لغاتهم ولهجاتهم تلك التدافعية على سطح النص /سطح الأرض الذي هو الجزائر ،حيث تصارعت و تعايشت و تحاورت اللغات المختلفة في واقع موصوف و موسوم بأنه متعدد و معقد في آن واحد ،و كانت هذه التدافعية المستمرة كثيرا ما تعكس تعايشا غير سلمي كما يراه البعض. [10].

و المتفحص لكتاب الأمير من مقدمته إلى نهايته يجد الكثير من بصمات اللغات واللهجات التي توحي بالتدافع مثل (الكلونيل –الكابتن –monsieur-ياوحد الفرخ –واش يستناك –votre altesse – tu veux dire la torture– peut être une erreur d appréciation).

و هكذا تتجاور اللغات في حوارية متواصلة ،و تدافعية لا تفتر كاشفة حركية النص و حيوية المجتمع البعيد عن الكسل و الخمول ،كما تعكس رواية الطاهر وطار ،العشق والموت في الزمن الحراشي ،ذلك التدافع اللغوي الذي عرفته و لا تزال أجيال الجزائر ، فتظهر على سطح النص مقاطع و أصوات عامية وسط التراكيب الفصيحة لتلون الخطاب بلون إضافي

هو اللون الشعبي ذي المعاني العميقة الصادرة عن المخيلة الشعبية الم بدعة ، و في الوقت نفسه تفسح المجال للمتلقي ولخياله لينفتح على فضاء شاسع من الإبداع الشعبي و الموروث العامي ، وهذا من خلال إيقاع لغوي خاص ودارج ،و صاحب صوت عال جري ومصارع عنيد (ما يبقى في الواد غير حجارو- اللي باقي في عمره نهار مات- اخدم يا التاعس للناعس ،كوله ا يالراقد بالنوم- اللي تتلفته اجريه) وهكذا ...،إضافة إلى مقاطع صوتية من لغة الآخر /الفرنسي (الأندروفر-الدوبل سيس...و غيرها).

و هده التدافعية يمكن النظر إليها في بعض الأحيان على أنها حوارية ناتجة من تجاور اللغات سعيا وراء تحقيق جمالية خاصة في الخطاب السردي ،و يسعى لها الروائي سعيا لدعم الواقعية في النص التي أشار و دعا إليها الكثير من النقاد.

و إن اللهجات العامية التي لجأ إليها الكثير من كتاب الرواية تخفي وراءها مخزونا ،ثقافيا شعبيا لا يستهان به ،بل تحوي وتحتفظ بخبرات بشرية موغلة في القدم ،مما جعلها تفوز بمكانة أساسية في الخطاب السردي ،و كثيرا ما نجد الأمثال والحكم الشعبية طافية على سطح النصوص مسهمة في تشكيلها و هذ ه النصوص الشبيهة بالواقع الذي تتدافع اللغات و اللهجات فيه و تتصارع الأشخاص و تتضارب الرؤى و المواقف .

فالخطاب السردي في هذا المسار يستحضر كل تجليات الحوارية ،و هذا ما يجعلنا نحكم عليه بأنه خطاب ذو طابع انفتاح ، وما توظيفه للغات متعددة و صهره لأجناس تعبيرية و خطابية متنوعة إلا دليل على تقديمه للتدافعية في الرؤى و تضارب أشكال الوعي وعرض التناقضات الاجتماعية و الفكرية والايديلوجية.[13]

و لعل ما يميز اللهجة العامية ،و عباراتها التصويرية هو ذلك المذاق الخاص لطابعها الحيوي في الاستعمال المحلي ،فهي تكتسب دلالات فيها إضمار يتعذر إدراكه على غير أهل ذلك الموضع أو يحتاج في معرفة إلى شرح طويل لمن سوى هؤ لاء الذين لا يتحدثون تلك اللهجة.[14] و تواجدها في الخطاب السردي بقوة ،بمفرداتها و إيقاعها الخاص يدلل على التنافس الحاد و التدلفع الصع ب من أجل كسب المتلقي و التأثير فيه ،و ترجيح الكفة لصالحها في مواجهة الفصحى و الفرنسية و غيرهما ...،و من النصوص الشعبية القوية وذات المعاني العميقة ما نجده في رواية راس المحنة لعز الدين جلاوجي[15] (يا راس المحنة لله كلمني /هذا وطنك ولى جيت براني ، أو يا مغبون الخ ير راح عليك /و الهم عليك تلايم وطاح)،وكذلك بعض المقاطع المستعارة من الأغنية الشعبية (يا الرايح وين مسافر تروح تعي و تولي ،راني خليتهالك أمانة/تهلى فيها وما تغبنهاج).

وهكذا ترساب النصوص الشعبية بلهجة عامية لا ترقى إلى الفصحى و لكن تسعى إلى دفعها بعيدا عن الفضاء الذي تتحرك فيه و تريد امتلاكه ،و تصارع بإمكاناتها الخاصة بإيقاعها ودلالاتها و بمخزونها الثقافي .و أرى أن هذا التدافع اللغوي بين الع امية و الفصحى صحيا و حوار نافعا مجديا ،فيه نوع من التناغم والانسجام الذي انتقلت عدواه من المجتمع الجزائري في سعيه و حركته إلى الخطاب السردي ،و من خلال ذلك كله يمكنني القول أن الخطاب السردي الجزائري قد حقق لنا رواية التدافعية و الحوارية بامتياز ،عبر تفاعل إيجابي

كشف لنا تنويعات في الرؤى و ساهم في دفع السرد إلى الأمام و طوره و هذا هو لب الحبكة في الخطاب السردي.

و إن الروائي لا يرى في استعمال النص الشعبي عيبا أو قدحا في الخطاب كله بل هو روح ثانية تنبعث فيه و تسعى إلى الانسجام مع إيقاع العربية الفصحى و هو يمثل في حقيقته تجربة لغوية مضافة إلى اللغة الأمة لتثريها .

فالتدافعية من خلال هذا الجهد و التي قدمها الخطاب السردي الذي استعنا به هي حالة صحية مثلما ورد في الخطاب القرآني ،تدافع بين الخير و الشر ،حتى تستقيم الحياة ويحي الخير وينشط وهو هنا اللغة العربية الفصيحة و الشريفة ،ومهما وجدنا من لهجات ولغات أجنبية تواجه العربية الفصحى، فإنها لم تستطع أن تؤثر عليها سلبا بل أحيتها من خلال حوارية حقيقية أعطتها الفرصة لتكشف عن قدراتها الجمالية أثناء التدافع و الصراع.

وهكذا تتدافع اللغات واللهجات في محطات معينة ،و تتحاور في محطات أخرى ، من خلال ذلك النزوع الذي نجده عند الكتاب إلى الاعتماد على عدة لغات و لهجات متباينة ،من تراثية ومحدثة، إلى أجنبية و عامية، ومن خلال خلفيات متعددة ومرجعيات تراثية إسلامية أو غربية ،كما قدموا كل ذلك من خلال شخصيات حداثية و تقليدية ومستغربة ، في هذا الخط والتوجه الكثير من الانفتاح و الانصهار للغات وأجناس تعبيرية وخطابية متنوعة .

وفي الأخير أصل إلى أن الخطاب السردي ميدان عريض طويل تتحرك فيه كل الرؤى وتتضارب فيه أشكال الوعي المختلفة فيعكس الواقع المتدافع بكل صدق و موضوعية . وتدافعية اللغات المتحققة في هذا الخطاب تبعد عنه شبح ال جمود و الموت ،لأن الحياة صراع والخطاب وجه من وجوه هذا التدافع والتصارع ،و كلما تقاطعت اللغات و تدافعت في النص السردي كلما ازدادت حيويته و تجلت جماليته.

الإحالات

1 - سورة البقرة آية 251.
2 - لسان العرب –مادة دفع .
3 - في ظلال القرآن ،ص270 ،271.
4 - منهج الفن الإسلامي ،ص 82.
5 - كتاب الأمير ،ص 71.
6 - نفسه ،ص 79.
7 - نفسه ،ص 70.
8 - نفسه ،ص 70.
9 - نفسه ،ص 100.
10 - نفسه ،ص 101.

11 - مجلة الخطاب ،ص 130.
12 - انظر : رواية العشق و الموت .
13 - أوراق ،ص 56.
14 - النقد المسرحي ،ص 78.
15 - انظر : راس المحنة.

المراجع

1 - القرآن الكريم ،راوية ورش.
2 - أوراق ،محمد العماري + محمد أدادا ،دار الأمان ،الرباط ،ط1 ،1996.
3 - راس المحنة ،عز الدين جلاوجي ،دار هومه ،الجزائر ،2004.
4 - العشق و الموت في الزمن الحراشي ،الطاهر وطار ،ش و ن ت ،الجزائر ط2 ،1982 .
5 - في ظلال القرآن .سيد قطب ،دار الشروق ،بيروت ط2 ،1994.
6 - كتاب الأميرواسيني لعرج ،منشورات الفضاء الحر ،الجزائر ، ط1 ،2004.
7 - لسان العرب ،ابن منظور ،دار صادر ،بيروت ،مجلد 08 .
8 - مجلة الخطاب ،دار الأمل الجزائر ،عدد 01 ماي 2006.
9 - منهج الفن الإسلامي ،محمد قطب ،دار الشروق بيروت ، ط6 ،1983 .
10 - النقد المسرحي ،محمد غنيمي هلال ،دار العودة بيروت ،1975.